(الثورى وبخله)

قَالَ الخليلُ السَّلولِيُّ : أقبلَ عليَّ يوما الثَّوْرِيُّ ، وكانَ يملك خمسمائة جَرِيب[1] ، ما بينَ كُرْسِيِّ الصَّدَقَةِ إلَى نهرِ مُرَّة . ولا يشتَرِي إلاَّ كلَّ غُرَّةٍ[2] وكلَّ أرضٍ مشهورةٍ بكَرِيم التُّربة ،وَشَرف الموضِعِ ، والغلَّة الكثيرة . قالَ : فأقبلَ عليَّ يومًا فقالَ لى : هلْ اصطبغتَ بماءِ الزَّيْتُونِ قَطُّ ؟ قال : قلتُ : لَا والله ! قال : أمَا والله لو ما نسِيتَه ! قال: قلتُ أجَلْ ، إنِّى والله لو فعلتُه لما نَسِيتُه !

وكان يقولُ لعيالِهِ : لا تُلْقُوا نَوَى التَّمْرِ والرُّطَب ، وتعوَّدُوا ابتلاعَهُ ، وخُذُوا حُلُوقَكُم بتَشْويغه ، فإنَّ النَّوَى يَعْقِدُ الشَّحْمَ في البطنِ ، ويُدْفِئ الكُلْيتينِ بذلكَ الشَّحْمِ ! واعتَبِروا ذلكَ بِبُطونِ الصَّفايا وجميعِ ما يَعْتَلِفُ النَّوَى ! والله لو حَمَلْتُم أنْفُسَكُم علَى البَزْرِ والنَّوَى وعلَى قَضْمِ الشَّعِير ، واعْتِلافِ القَتِّ[3] ،لوجدتمُوها سريعةَ القَبُولِ ! وقدْ يأكلُ الناسُ القَتَّ قَدَّاحًا ، والشعيرَ فَرِيكًا ، ونَوَى البُسْرِ الأخْضَرِ ، ونَوَى العَجْوة .

فإنمَّاَ بقيتْ الآن عليكُم عَقَبةٌ واحدَةٌ : لو رَغِبتُم في الدِّفْءِ لالتمستُم الشَّحْمَ . وكيفَ لاَ تطلبونَ شيئًا يُغْنيكُم عنْ دُخَانِ الوَقُودِ ، وعنْ شَناعةِ العَكَرِ ، وعنْ ثِقَلِ الغُرْمِ ؟ والشحمُ يُفَرِّحُ القلبَ ، ويبيِّضُ الوجهَ . أنَاَ أقْدِرُ أنْ أبتلِعَ النَّوَى ، وأَعْلِفَهُ النساءَ[4] . ولكنِّى أقولُ ذلكَ بالنظرِ منِّى لكم[5] .

وكانَ يقولُ : كُلُوا البَاقِلِىَّ ، فإنَّ البَاقلىَّ يقول : مَنْ أكَلَنِى بقُشُورِى فقدْ أكلنِى ومنْ أكَلَنِى بغيرِ قُشورِى فأنا الذي آكُلُه ! فمَا حاجَتُكُم إلَى أنْ تصِيروا طعامًا لطعامِكُم ، وأكلًا لما جُعِلَ أكلًا لكم[6] ؟

وكانَ يُعَيِّنُ مالًا عظيمًا . ولم يكنْ لهُ وارثٌ . فكانَ يَسْخَرُ ببعضِهم ، فيقولُ عندَ الإشْهادِ : قد علمتُم أن لا وارث لي . فإذَا مُتُّ فهذَا المالُ لفلانٍ ! فكانَ قومٌ كثِيرٌ يَحْرِصُونَ علَى مُبايعتِهِ لهذَا .

وقد رأيتُه أناَ زمانًا منِ الدَّهْرِ ، ما رأيتُه قَطُّ إلاَّ ونَعْلُه في يدِهِ أو يَمْشِي طُولَ نهارِه في نَعْل مَقْطُوعةِ العَقِبِ ، شديدةٍ علَى صاحِبها !

قالَ : فهوَ ذَا المَجُوسُ ، يرتَعُونَ البَصْرَةَ وبَغْدادَ وفارِسَ والأهْوَازَ والدنيا كلَّها ، بنعالٍ سِنْدية[7] .

فقيلَ لهُ : إنَّ المَجُوسِي لاَّ يَسْتَحِلُّ في دينِهِ المُشَرَّكةُ ، فأنتَ لا تَجِدُه أبدًا إلا حافِيًا ، أو لابسًا نَعْلا سِنْديَّةً . وأنت مُسْلِمٌ ، ومالُك كثيرٌ .

---

(١) الجريب : القطعة المتميزة من الأرض ، وقيل : المزرعة ويختلف مقدارها باختلاف أهل الإقليم .
(٢) الغرة من كل شيء : أوله وأكرمه ، ومن المتاع : خياره ورأسه .
(٣) القتّ : جنس نباتات عشبية كلئية فيه أنواع تزرع وأخرى تنبت برية .
(٤) فى العيون «الشاء» . (٥) انظر عيون الأخبار (٣/ ٢٧٩ ، ٢٨٠) .
(٦) انظر عيون الأخبار (٣/ ٢٨٠) والعقد الفريد (٦/ ١٣٧) .
(٧) سندية : نسبة إلى السند .

قالَ : فَمَنْ كانَ مالُه كثيرًا ، فلابُدَّ له مِنْ أن يَفْتَحَ كِيسَه للنفَقاتِ وللسُّرَّاقِ ؟

قالُوا : فليسَ بين هاتينِ منزلةٌ ؟

قالَ الخَليلُ : جلسَ الثَّوْرِيُّ إلَى حَلْقةِ المُصْلِحينَ في المَسْجِد . فسمِع رَجُلًا من ميَاسيرِهِم يقولُ : بَطِّنُوا كلَّ شيءٍ لكُم ، فإنَّه أبْقَى . ولأمْرٍ جَعَلَ الله دارَ الآخرة باقِيةً ، ودارَ الدنيا فانِيةً . ثُم قالَ : ربمَّا رأيتَ المبَطَّنةَ الواحدةَ تَقطعُ أربَعةَ أقمصةٍ ، والعِمامةَ الواحدةَ تَقْطَعُ أربعةَ أُزُرٍ[1] ، ليسَ ذلكَ إلاَّ لِتَعَاوُنِ الطَّيِّ وترافُدِ الأَثناءِ. فبطَّنُوا البَوَارِيَّ ، وبَطِّنُوا الحُصُر ، وبطِّنُوا البُسُطَ ، وبطِّنوا بِشَرْبَةٍ باردةٍ !

قالَ : فقالَ له الثَّوْرِيُّ : لم أفهمْ ممَّا قلتَ إلا هذا الحرفَ وحْدَهُ[2] !

قالَ الخليلُ : حُمَّ الثَّوْرِيُّ وحُمَّ عياله وخادِمهُ ، فلمْ يقدرُوا مع شِدَّة الحُمَّى على أكلِ الخبزِ فربح كِيلةَ تلكَ الأيَّامِ مِنِ الدَّقيقِ ، ففرحَ بذلكَ ، وقالَ : لو كانَ مَنْزِلى سُوقَ الأهْوازِ ، أو نَطَاةَ خَيْبَرَ ، أو وادِيَ الجُحْفةِ ، لَرَجَوْتُ أنْ أسْتَفْضِلَ كلَّ سنةٍ مائةَ دينارٍ ![3]

فكانَ لا يُبَالِي أنْ يُحَمَّ هُو وأهْلُه أبدًا ، بعدَ أن يستفضل كفايتَهم منَ الدَّقيقِ !

وكانَ يقولُ : إذَا رأيتُ الرجلَ يَشْتَرى الجَدْىَ رحِمتُه ، فإن رأيتهُ يشترى الدَّجاجَ حَقَرْتُه ، فإنْ رأيتُه يشترِى الدُّرَّاجَ لم أبايعْه ولم أكلِّمهُ !

وإنَّه قالَ : أولُ الإصلاحِ - وهُو منَ الواجبِ - خَصْفُ النَّعْلِ ، واستِجادةُ الطِّراقِ[4] ، وتَشْحِيمُها في كلِّ الأيام ، وعَقْدُ ذُؤَابةِ الشِّراكِ ، مِنَ زِيِّ النسَّاك ، لكيلاَ يطأَ عليه إنسانٌ فيقطَعَه . ومنَ الإصلاحِ الواجبِ قَلْبُ خرْقَةِ القَلَنْسُوَةِ إذَا اتَّسَخَتْ ،وغَسْلُها منَ اتِّساخِها بعدَ القَلْبِ . واجْعَلْهَا حِبَرَةً ، فإنَّها ممَّا له مَرْجُوعٌ !

ومنَ ذلكَ اتخَاذُ قميصِ الصَّيْفِ جُبَّةً في الشِّتاءِ ، واتِّخاذُ الشَّاةِ اللَّبُون إذَا كانَ عندكَ حِمارٌ . واتخَاذُ الحِمار الجامِعِ خَيْرٌ من غَلَّةِ ألْفِ دِينارٍ : لأنَّه لِرِحْلِك ، وبه يُدْرَكُ البعيدُ منْ حَوَائِجك ، وعليه يُطحَنُ ، فستَفْضِلُ عليه ما يَرْبُحهُ عليكَ الطحّانُ . ويُنْقَلُ عليه حوائِجُه وحوائجكَ حتّى الحطبُ . ويُسْتَقَى عليه الماءُ . وهذه كلُّها مُؤَنٌ إذَا اجتمعتْ كانتْ في السَّنَةِ مالا كثيرًا . ثُم قالَ : أشْهَدُ إنَّ الرِّفْق يُمْنٌ ، وإنَّ الخُرْقَ شُؤْمٌ .

واشتريْتُ مُلاءَة مَذَارِيَّةً[5] ، فلبِسْتُها ما شاءَ الله رِداءً ومِلْحَفَةً . ثم احتجتُ إلى طَيْلَسَانٍ[6] ،

---

(١) أزُر : جمع إزار وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن .

(٢) يريد بهذا الحرف قول الرجل (وبطنوا الغذاء) لأن شربة الماء تمنع الإكثار من الأكل .

(٣) انظر عيون الأخبار (٣/ ٢٨٠) . (٤) الطراق : جلد النعل ، واستجادته : تخيره وطلب أن يكون جيدا .

(٥) المذار : بلد بين واسط والبصرة .

(٦) الطَّيْلسان : نوع من أكسية الفرس ، ومن شتم العرب : يابن الطيلسان : يريدون : يا عجمي .

فَقَطعتُها -يَعْلَمُ الله ! - فلبستهُ ما شاءَ الله . ثُم احتجْتُ إلىَ جُبَّةٍ فَجعلتُه - يَعْلَمُ الله ! - ظِهارةَ جُبَّةٍ مَحْشُوَّةٍ ، ما شاءَ الله . ثُم أخرجتُ ما كانَ فيها منَ الصحيح ،فجعلتهُ مَخَادَّ ، وجعلتُ قُطْنَها للقَنَادِيلِ . ثُم عَمَدْتُ إلَى أصَحِّ ما بَقِى، فبعتُه مِنْ أصحابِ الصِّينيَّاتِ والصَّلاَحِياتِ . وجعلتُ السُّقَاطاتِ[1] ، وما قدْ صار كالخُيُوطِ وكالقطنِ المَنْدُوفِ ، صَمَائِم[2] لرءوسِ القَوارِيرِ!

(أبو عبد الرحمن وبخله)

وقَد رأيتهُ ، وسمعتُ منهُ في البخلِ كلامًا كثيرًا . وكانَ منَ البَصْرِيِّين ، يَنْزِلُ في بَغْدَادَ مَسْجِدَ ابنِ رَغْبَانَ . ولم أر شيخًا ذَا ثَرْوةٍ اجتمعَ عندهُ وإليهِ منَ البُخَلاءِ ما اجتمعَ له: منهم إسماعيلُ بنُ غَزْوانَ ، وجَعْفرُ بنُ سَعِيدٍ ، وخَاقانُ بنُ صُبَيْحٍ ، وأبو يعقوبَ الأعْورُ ، وعبدُ الله العروضى، والحِزاميُّ عبدُ الله بنُ كاسِبٍ .

وأبو عبدِ الرحمنِ هذَا شديدُ البُخْلِ ، شَديدُ العارِضةِ[3] ، عَضْبُ اللسانِ[4]. وكانَ يَحْتَجُّ للبُخلِ ، ويوُصِى بهِ ، ويَدْعُو إليهِ . وماَعلمتُ أنَّ أحدًا جَرَّدَ في ذلكَ كتابًا إلاَّ سَهْلَ بنَ هارون .

وأبو عَبْد الرحمِن هذَا هُو الذي قالَ لابنهِ : أيْ بُنَيَّ ، إنَّ إنْفاقَ القَرَاريطِ ، يفتحُ عليكَ أبوابَ الدَّوانيقِ ، وإنفاقَ الدوانيقِ ، يفتحُ عليكَ أبوابَ الدراهمِ ، وإنفاقَ الدراهم ، يَفْتَحُ عليك أبوابَ الدنانيرِ . والعَشَراتُ تفتحُ عليكَ أبوبَ المِئِينَ ، والمِئُونَ تفتَحُ عليكَ أبوابَ الأَلوفِ ، حتَّى يأتىَ ذلكَ علَى الفَرْعِ والأَصْلِ . ويَطْمِسَ علَى العَيْن والأَثَرِ ، ويحتمِلَ القليلَ والكثيرَ !

أىْ بُنَيَّ إنمَّا صارَ تأويلُ الدِّرهم : « دارَ الهمِّ » ، وتأويلُ الدينارِ « يُدْنِى إلَى النَّارِ » الدرهمُ إذَا خَرَجَ إلَى غَيْرِ خَلَفٍ ، وإلَى غَيْرِ بَدَلٍ ، دارَ الهَمِّ علَى دوانِق مُخْرَجَة . وقيلَ - : إنَّ الدينارَ يُدْنِى إلَى النارِ ، لأنهَّ إذَا أنفقتَه في غيرِ خَلَفٍ ، وأخْرِجَ إلَى غيرِ بَدَلٍ ، بقِيتَ مُخْفِقًا مُعْدِمًا وفقيرًا مُبْلَطًا . فيخرجُ الخارجُ ، وتدْعُو الضَّرورةُ إلَى المَكَاسِب الردِيَّة ، والطُّعَم الخبيثةِ .

والخبيثُ منَ الكَسْبِ يُسْقِطُ العدالةَ ، ويَذْهَبُ بالُمروءَةِ ، ويُوجِبُ الحَدَّ ، ويُدْخِل النَّارَ .

(عبد الأعلى وبخله)

وهذَا التأويلُ الذي تأوَّله للدرهِم والدينارِ ليسَ له ، إنمّا هذَا شيءٌ كانَ يتكلَّم به عبدُ الأعْلى القاصُّ .

---

(١) السقاطات : جمع سقاطة ، وهى ما سقط من الشىء .

(٢) صمائم : جمع صمامة ، وهى السداد .

(٣) العارضة : قوة الكلام ، والرأى الجيد .

(٤) عضب اللسان : تشبيه بالسيف القاطع لكل لسان حاد طلق .

فكانَ عبدُ الأعْلى إذَا قيلَ له : لم سُمِّيَ الكَلْبُ قَلَطِيًا[1] ؟ قالَ : لأنَّه قَلَّ ولَطَى! وإذَا قيلَ له : لم سُمِّيَ الكلبُ سَلُوقيًا؟[2] قالَ : لأنهَ يَسْتَلُّ ويُلْقِى ! وإذَا قيلَ له : لم سُمِّيَ العُصْفورُ عصفورًا ؟ قالَ : لأنَّه عَصَى وفَرَّ !

وعبدُ الأعلَى هذَا هو الذي كانَ يقولُ في قَصَصِهِ : الفقيرُ ... مِرْفَقَتهُ سَلَبَة[3] ، وجَرْدَقَتُه فلْقة[4] ، وسَمَكتهُ سَلْته ، في طَيِّبٍ له كثيرٌ .

وبعضُ المُفَسِّرين يَزْعُمُ أنَّ نُوحا النبيَّ عليه السلام ، إنما سُمِّيَ نُوحًا ، لأنَّه كانَ يَنُوح علَى نفسهِ ، وأنَّ آدَمَ إنمّا سُمِّى آدَمَ ، لأنَّه حُذِيَ منْ أديمِ الأرضِ - وقالُوا : كانَ لونهُ في أدْمَته لَوْنَ الأرضِ - وأنَّ المَسيح لأنَّه مُسِح بِدُهْنِ البَرَكةِ . وقالَ بعضُهم : لأنَّه كانَ لا يقيمُ في البلدِ الواحدِ . وكانَ كأنَّه ماسحٌ يمسحُ الأرضَ .

(مع أبي عبد الرحمن مرة أخرى)

ثم رَجَعَ الحديثُ إلَى أعاجيبِ أبي عبد الرحمن :

وكانَ أبو عبد الرحمن يُعْجَبُ بالرءوسِ ، ويَحْمَدُها ويَصِفُها . وكانَ لا يأكلُ اللحمَ إلاَّ يومَ أضْحًى ، أو مِنْ بَقِيَّة أضْحِيتِه ، أو يكونُ في عُرْسٍ أو دعوةٍ أو سُفْرةٍ . وكانَ سَمَّى الرأسَ عُرْسًا ، لما يجتمعُ فيهِ من الأَلْوَانِ الطَّيِّبَةِ . وكانَ يُسمِّيه مَرَّةً الجامِعَ، ومرّة الكامِلَ .

وكانَ يقولُ : الرأسُ شيءٌ واحدٌ ، وهو ذُو ألوانٍ عَجِيبةٍ ، وطُعُومٍ مختلفةٍ . وكلُّ قِدْرٍ وكلُّ سِواءٍ فإنمَّا هو شيءٌ واحد . والرأسُ فيه الدِّماغُ . فطَعْمُ الدماغِ علَى حِدَة. وفيه العَيْنانِ ، وطعمُهما شيءٌ علي حِدَة . وفيه الشَّحْمَةُ التي بينَ أصلِ الأُذُنِ ومُؤْخرِ العينِ ، وطعمُها على حِدَة . على أنَ هذهِ الشَّحْمَة خَاصَّةً أطيبُ مِنَ المخِّ ، وأنْعَمُ من الزُّبْد ، وأدْسَمُ من السِّلاءِ[5] .

وفي الرأسِ اللسانُ ، وطَعْمُه شيءٌ على حِدَة . وفيه الخَيْشُوم ، والغُضْروف الذي في الخَيْشُوم ، وطعمُهما شيءٌ على حِدَة . وفيه لحمُ الخَدَّينِ ، وطعمهُ شيء على حِدَة - حتى يُقَسِّم أسْقَاطَه الباقيةَ .

ويقولُ :

الرأسُ سَيِّد البَدَنِ : وفيه الدِّماغُ ، وهو مَعْدِنُ العقلِ ، ومنه يتَفرَّق العَصَبُ الذي فيه الحِسُّ ، وبه قِوَامُ البَدَنِ . وإنمَّا القلبُ بابُ العقلِ - كما أنَّ النفسَ هي المُدْرِكةُ ، والعينُ هي بابُ الألوانِ ،

---

(١) قلطيا : القلطى : القصير المجتمع من الناس والكلاب والسنانير .

(٢) السلوقى : نسبة إلى سلوق قرية تنسب إليها الكلاب الجياد ، والدروع الجيدة ، وفى القاموس أنها باليمن .

(٣) سلبة : المرفقة هى المخدة ، والسلبة : نوع من الحبال .

(٤) فلقة : قطعة ، والجردقة كما عرفنا : الرغيف والمعنى : أن الفقير لا يعرف الرغيف الكامل .

(٥) السلاء : السمن ذهب ما فيه من آثار اللبن .

والنفسُ هي السامعةُ الذَّائِقةُ ، وإنمَّا الأنفُ والأُذُنُ بابانِ .

ولولاَ أنَّ العقلَ في الرأسِ لما ذهبَ العقلُ من الضَّرْبة تُصِيبه .

وفي الرأس الحواسُّ الخمسُ .

وكان يُنْشِدُ قَوْلَ الشاعر :

إذَا ضَرَبُوا رأسِي وفي الرأسِ أكْثَرِي وغُودِرَ عندَ الملتقَى ثَمَّ سائِرِى[1]

وكانَ يقول : الناس لم يقولُوا : هذا رأسُ الأمر ، وفلانٌ رأسُ الكَتيبةِ ، وهو رأسُ القومِ ، وهم رُءُوس الناسِ وخَراطِيمُهم وأنْفُهُم ، ويَشْتَقُّوا من الرأس الرِّياسةَ ، والرئيسَ ، « وقد رأَسَ القومَ فلان » ، إلاَّ والرأسُ هُوَ المَثَلُ ، وهو المُقَدَّمُ .

وكانَ إذَا فَرَغَ منْ أكلِ الرأسِ عَمَدَ إلى القِحْفِ[2] ، وإلى الجَبِينِ ، فوضعهُ بقُرْب بُيوتِ النَّمْل والذَّرّ . فإذَا اجتمعتْ فيهِ أَخَذه فَنَقَضَه في طَسْتٍ فيها ماءٌ . فلاَ يزال يُعِيدُ ذلكَ في تِلْكَ المواضعِ حتَّى يَقْلَعَ أصلَ النملِ والذَّرِّ من دارِهِ . فإذَا فرغَ من ذلكَ ألقَاهُ في الحَطَبِ ، ليُوْقدَ به سائِرَ الحطبِ .

وكانَ إذَا كانَ يومُ الرءوسِ ، أَقْعدَ ابنه معه علَى الخوانِ . إلاَّ أنْ ذلكَ بَعْدَ تَشَرُّطٍ طويلٍ ، وبعدَ أن يَقِفَ به على ما يُريدُ !

وكانَ فيما يقولُ له : إيَّاك ونَهَمَ الصِّبيانِ ، وشَرَهَ الزُّرَّاع ، وأخلاقَ النوائحِ . ودَعْ عنكَ خَبْطَ الملاّحِينَ والفَعَلة[3] ، ونَهْشَ الأعْرَابِ والمَهَنَةِ . وكُلْ ما بينَ يَدَيْكَ ، فإنمَّا حَقُّكَ الذي وَقَعَ لكَ ، وصارَ أقْرَبَ إليكَ .

وأعلمُ أنَّه إذَا كانَ في الطعامِ شيءٌ طَرِيفٌ ، ولُقْمةٌ كريمةٌ ، ومُضْغةٌ شهِيّةٌ ، فإنمّا ذلكَ للشَّيْخِ المعظَّمِ والصَّبي المُدلَّلِ . ولستَ واحدًا منهُما . فأنتَ قَدْ تَأتِي الدَّعَواتِ والولائم ، وتدخُل منازلَ الإخوانِ ، وعَهْدُك باللَّحم قَريبٌ ، وإخوانُك أشَدُّ قَرَما إليه منكَ . وإنمّا هو رأسٌ واحدٌ . فلاَ عليكَ أن تَتَجَافَى عن بَعْضٍ وتُصِيبَ بعضًا . وأنَا بَعْدُ أكْرهُ لكَ المُوَالاةَ بينَ اللحمِ ، فإنَّ الله يُبْغِضُ أهْلَ البيتِ اللَّحِمين[4] .

وكانَ يقولُ : إيَّاكُم وهذه المَجازِرَ ، فإنَّ لها ضَراوَةً ، كضَرَاوةِ الخمرِ .

وكان يقول : مُدْمِنُ اللحم كَمُدْمِن الخمرِ .

وقالَ الشيخُ ورأى رجلًا يأكلُ اللحمَ ، فقالَ : لحمٌ يأكلُ لحمًا ! أفٌّ لهذا عَمَلًا ! وذكر هَرِمُ بن

---

(١) عيون الأخبار (٣/ ٢٢٢) برواية : «همو» بدلا من «إذا» . والبيت للشَّنْفَرى الأَزْدىّ .

(٢) القحف : ما انفلق من الجمجمة فبان .

(٣) الفعلة : جمع فاعل ، وهم العاملون فى الحفر والطين . يقال : «لا تكن عنيفا فى أكلك عنف الفعلة فى عملهم» .

(٤) اللَّحمين : هم الذين يكثرون أكل اللحم ويدمنونه .

قُطْبَةَ اللحمَ ، فقالَ : وإنَّه ليَقْتُلُ السِّباعَ .

وقال المُهَلَّبُ : لَحْمٌ واردٌ علَى غير قارِم[1] ، هذاَ الموتُ الأَحْمرُ .

وقالَ الأَوَّلُ : أهلَكَ الرجالَ الأحمرانِ : اللحمُ والخمرُ ، وأهلكَ النِّساءَ الأحمرانِ : الذهبُ والزَّعْفَرانُ .

أيْ بُنيَّ ، عَوِّدْ نفسَك الأَثَرَةَ ، ومُجَاهَدَةَ الهَوَى والشَّهْوةِ . ولا تَنْهَشْ نَهْشَ الأفاعِي، ولا تَخْضَمْ خَضْمَ البراذِين[2]، ولا تُدِم الأَكْلَ إدامةَ النِّعاجِ ، ولا تَلْقَمْ لَقْمَ الجِمالِ. قال أبو ذَرٍّ لمن بَذَلَ مِن أصحابِ رسولِ الله ﷺ : يَخْضَمُونَ ونَقْضَم[3] ، والمَوْعِدُ الله .

إنَّ الله قَدْ فَضَّلكَ ، فَجَعَلكَ إنسانًا ، فلا تَجعلْ نفسَك بَهيمةً ولا سَبُعًا . واحذرْ سُرْعةَ الكِظَّةِ ، وسَرَفَ البِطْنةِ . وقد قال بعضُ الحكماءِ : إذَا كنتَ بَطِينًا فَعُدَّ نَفْسَك في الزَّمْنَى . وقالَ الأعشى :

* والبِطْنَةُ مِمَّا تُسَفِّه الأحلاَما[4] *

واعلَم أنَ الشِّبَع داعيةُ البَشَم ، وأنَّ البَشَم داعيةُ السَّقَم ، وأنَّ السَّقَم داعيةُ الموْتِ . ومَنْ ماتَ هذه المِيتةَ ، فقد ماتَ مِيتةً لَئِيمةً . وهو قاتِلُ نفسِه ، وقاتِلُ نَفْسِه أَلْوَمُ مِنْ قاتِلِ غَيْرِه .

واعْجَبْ ، إنْ أردتَ العَجَبَ ! وقد قالَ الله جلَّ ذِكْرُه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ ﴾ [النساء : ٢٩] وسواءٌ قتلناَ أنْفُسَنا ، أو قَتَلَ بَعْضُنَا بَعْضًا ، كانَ ذلكَ للآية تأويلًا.

أيْ بُنيَّ ، إنّ القَاتِلَ والمقتولَ في النار[5] . ولو سألتَ حُذَّاقَ الأطبَّاء لأخبروكَ أنَّ عامَّةَ أهلِ القُبور إنمّا ماتُوا بالتُّخَم . واعْرِفْ خَطَأَ مَنْ قالَ : أَكْلَةٌ ومَوْتَةٌ ! وخُذْ بقولِ مِنْ قالَ : رُبَّ أَكْلةٍ تمنعُ أَكَلاَتٍ . وقد قالَ الحَسنُ : يا بنَ آدم كُلْ في ثلثِ بطنكَ ، واشربْ في ثلثِ بطْنِكَ ، ودع الثُّلثَ للتفكُّر والتَّنفسِ . وقالَ بَكْرُ بنُ عبدِ الله المُزَنِيُّ: ما وجدتُ طَعْمَ العَيْشِ حتَّى استبدلتُ الخُمْصَ بالكِظَّةِ ، وحتَّى لم أَلْبَسْ منْ ثِيابِي ما يستخدِمُنى ، وحتَّى لم آكلْ إلاَّ ما لاَ أَغْسِلُ يَدَىَّ منهُ.

يابُنَيَّ ، والله ما أدَّى حقَّ الرُّكوعِ ، ولا وَظِيفةَ السجودِ ذو كظَّةٍ ، ولا خَشَعَ لله ذو بِطْنةٍ . والصَّوْمُ مَصَحَّةٌ ، والوَجَباتُ عَيْشُ الصالحين .

---

(١) قارم : قَرِم اللحمَ : اشتدت شهوته إليه .

(٢) البراذين : جمع بِرْذون ، وهو الخيل العظيمة الخِلقة .

(٣) يخضمون ونقضم : يقصد أبو ذر أن يقول لمن بذل ماله فى سبيل الله إنكم تبذلون فى سبيل الله ، أما نحن الفقراء فنرضى بالقليل مما تجودون به علينا تعففا ، ولا نشره فى الأكل .

(٤) والبيت كما فى الصبح المنير فى شعر أبى بصير (١٧٣) :

يا بنى مُنْذِر بنِ عبدان والبِطْـ ـنَةُ يومًا قد تأفِن الأحلام

وروايته فى اللسان (بطن) غير منسوب :

يا بنى المُنْذِرِ بنَ عَبْدان والبِطْـ ـنَةُ مما تُسَفِّه الأحلاَما

(٥) القاتل : من مات بالتخمة فقد قتل نفسه فهو قاتل ومقتول في وقت واحد فهو في النار على رأيه .

ثُم قالَ : لأمرٍ مَّا طالتْ أعمارُ الهِنْدِ ، وصحَّتْ أبدانُ الأعْرابِ . لِلَهِ درُّ الحارِثِ بن كَلَدَة[1] ، حينَ زَعَم أنَّ الدواءَ هوَ الأَزْمُ[2] ، وأنَّ الداءَ هو إدخالُ الطعامِ في أثَرِ الطعامِ !

أى بُنىّ لِمَ صَفَتْ أذْهانُ العَرَبِ ؟ ولِمَ صَدَقَتْ أحْساسُ الأعْرابِ ؟ ولم صَحَّت أبدانُ الرُّهْبانِ ، مَعَ طُول الإقامةِ في الصَّوامِع ؟ وحتى لم تعرف التَّقْرِسَ[3] ، ولا وَجَعَ المفاصِلِ، ولاَ الأَوْرَامَ ، إلا لقلة الرِّزْقِ منَ الطَّعامِ ، وخِفَّة الزادِ ، والتَّبلُّغِ باليسيرِ .

أيْ بُنَىَّ ، إنّ نَسِيمَ الدنيا ورَوْحَ الحياة أفْضَلُ مِنْ أن تَبِيتَ كَظِيظًا ، وأن تكونَ لِقِصَر العُمْر حَلِيفًا . وكيفَ ترغبُ في تَدْبيرٍ يجمعُ لكَ صِحَّةَ البدنِ ، وذكاءَ الذِّهنِ ، وصلاحَ المِعَى ، وكثرةَ المالِ ، والقُرْبَ منْ عَيْشِ الملائكةِ ؟

أىْ بُنَىَّ ، لِمَ صَارَ الضَّبُّ أطْوَلَ شيءٍ عُمْرًا إلاَّ لأنَّه إنمَّا يَعيشُ بالنَّسِيم ؟ ولِمَ زَعَمَ الرَّسولُ ﷺ أنَّ الصوم وجَاءٌ[4] إلاّ لِيجعلَ الجوعَ حِجَازًا دونَ الشَّهواتِ . افهم تأديب الله ، فإنه لم يَقصدْ به إلا مثلَكَ .

افهمْ بُنىَّ ، قَد بلغتُ تِسْعين عامًا ما نَقَصَ لى سِنٌّ ، ولا تحرَّكَ لى عَظْم ، ولا انتَشَرَ لى عَصَبٌ ، ولا عرفتُ دَنِينَ أُذُنٍ ، ولا سَيَلانَ عَيْنٍ ، ولا سَلَسَ بَوْلٍ ! ما لذلكَ عِلَّةٌ إلاَّ التَّخْفِيفَ منَ الزادِ فإنْ كنتَ تُحِبُّ الحياةَ ، فهذهِ سبيلُ الحياةِ ، وإنْ كُنتَ تُحِبُّ الموتَ ، فلا يُبْعِدُ اللهُ إلا مَنْ ظَلَم .

هذه كانتْ وَصِيَّتَه في يوم الرُّءوسِ وَحْدَه ! فلمْ يكُنْ لعِيالِهِ إلا التَّقَمُّمُ ومَصُّ العَظْمِ !

وكانَ لا يشترِي الرأسَ إلاَّ في زيادةِ الشَّهرِ ، لِمَكَانِ زيادةِ الدِّماغِ . وكانَ لا يشترِي إلاَّ رأسَ فَتِىٍّ ، لِوَفارةِ الدِّماغِ ، لأنَّ دِماغَ الفَتِىِّ أوْفَرُ ، ويكون مُخّه أنْقَصَ ، ومُخُّ المُسِنِّ أوْفَر ، ودمَاغه أنْقَصَ .

ويزعمونَ أنَّ للأهِلَّة والمَحاقِ في الأدْمِغة والدِّماء عملًا معروفًا، وبينها في الربيع والخريفِ فَضْلًا بيِّنًا. وتزعم الأعرابُ والعربُ أن النطفة إذا وقعت في الرَّحِم في أوَّل الهِلالِ، خرجَ الولدُ قَوِيًّا ضَخْمًا ، وإذَا كانَ في المِحَاق خَرَج ضئيلًا شَخْتًا[5].

وأنشدَ قَوْلُ الشاعر :

لَقِحَتْ في الهلالِ عنْ قُبُلِ الطُّهْـ ـرِ وقدْ لاحَ للصَّباحِ بَشِيرُ[6]
ثُم نَمَّى ولم تُرَضِّعْ فَلُوًّا وَرَضَاعُ المُحِجِّ عَيْبٌ كبيرُ

(١) الحارث بن كَلَدَة الثقفى : طبيب العرب فى عصره ، وأحد الحكماء المشهورين . من أهل الطائف . رحل إلى بلاد فارس رحلتين فأخذ الطب عن أهلها . مولده قبل الإسلام . واختلف فى إسلامه . له كلام في الحكمة ، وكتاب «محاورة فى الطب» بينه وبين كسرى أنو شروان . الأعلام(٢/ ١٥٦ ، ١٥٧) .

(٢) الأزم : أزَمَ أى أمسك عن المطعم المشرب . (٣) التقْرس : ورم يحدث فى مفاصل القدم .

(٤) أخرجه البخارى فى الصوم . باب الصوم لمن خاف على نفسه العُزبة (٤/ ١٤٢) ومسلم فى النكاح . باب استحباب النكاح . . . (١ ، ٣) والنسائى وابن ماجة والدارمى وأحمد .

(٥) الشخت : الضامر خِلقة . (٦) فى عيون الأخبار (٢/ ٧٧) .

وكانَ أَبُوُ عبد الرحمن يِشْتري ذلكَ الرأسَ من جميعِ رءَّاسي بَغْدَادَ ، إلاَّ منْ رَءَّاسِ مسْجِد ابنِ رَغْبَانَ . وكانَ لا يشتريهِ إلاَّ يَوْمَ سَبْتٍ . واختلطَ عليه الأمرُ فيما بَيْنَ الشتاءِ والصيفِ فكان مَرَّةً يشتريه في هذاَ الزمانِ ، ومَرَّةً يشتريه في هذاَ الزّمانِ .

وأَمَّا زُهْدُه في رُءُوس مَسْجِد ابن رَغْبَانِ ، فإنَّ البَصْريِّين يختارون لَحْمَ الماعزِ الخَصِيِّ على الضأْن كلِّهِ . ورُءُوسُ الضأْن أَشْحَمُ وأَلْحَمُ ، وأَرْخَصُ رُخْصًا وأَطْيب . ورأسُ التَّيْسِ أكثرُ لحمًا من رأسِ الخَصِيِّ ، لأَنَّ الخَصِيَّ من المَاعِز يَعْرَقُ جلْدُه ، ويقِلُّ لحمُ رأسهِ ولا يبلغُ جلْدُه ، « وإنْ كانَ ماعزًا » ، في الثمنِ ، عُشْرَ ما يبلغُ جِلْدُ التَّيْسِ . ولا يكونُ رأسهُ إلاَّ دُونًا[1] . ولذلكَ تخطَّاه إلى غيرهِ .

وأَمَّا اختيارُه شِراءَ الرءوسِ يومَ السَّبتِ ، فإنَّ القصَّابينَ يذْبَحُونَ يومَ الجمعةِ أكْثر ، فتكثُر الرءوسُ يومَ السبتِ ، علَى قدرِ الفَضْلِ فيما يَذْبحونَ ؛ ولأَنَّ العوامَّ والتُّجَّارَ والصُّنَّاعَ لا يقومونَ إلىَ أكلِ الرءوسِ يومَ السبتِ ، مع قُرْب عَهْدِهم بأَكْلِ اللَّحمِ يومَ الجمعةِ ؛ ولأَنَّ عامَّتهُم قدْ بقيتْ عِنْدَهُ فَضْلةٌ ، فهى تَمْنَعه منَ الشَّهْوة ؛ ولأَنَّ الناسَ لا يكادُون يَجْمَعُونَ على خِوانٍ واحدٍ بَيْنَ الرُّءوسِ واللحمِ .

وأَمَّا اختِلاطُ التَّدْبيرِ عليه فى فَرْق ما بَيْنَ الشتاءِ والصيفِ ، فوَجْهُ ذلكَ أَنَّ العِلَلَ[2] كانتْ تَتَصوَّرُ له ، وتعرِضُ له الدَّواعِى علَى قَدْرِ قَرَمِه ، وَحَرَكةِ شَهْوتِه ، صيفًا وافَقَ ذلكَ أم شِتَاءً .

فإنِ اشتراهُ فى الصيفِ ، فلانَّ اللَّحم فى الصيفِ أَرْخَصُ . والرءوسُ تابعة للَّحم ؛ ولأَنَّ الناسَ فى الشتاءِ لها آكَلُ ، وهُم لها فى القَيْظ أتركُ . فكانَ يختارُ الرُّخْصَ على حُسْن المَوْقِع .

فإذَا قويتْ دواعيهَا فى الشتاءِ قال : رأسٌ واحدٌ شَتْوِىٌّ كرأسينِ صَيْفِيَّيْنِ !لأَنَّ المعُلوفةَ غَيْرُ الرّاعيةِ . وما أكلَ الكُشْبَ في الحَبْسِ مؤُنْقًا ، غيرَ ما أكلَ الحشيشَ في الصحراءِ مطلقًا .

وكانَ على ثِقَةٍ أَنَّه سيأتى عليه في الشِّتاءِ ، مع صحته وبَدْنِه ، وفي شَكٍّ منَ استبقائِه في الصيفِ . ولنُقْصانِ شَهَواتِ الناسِ للرءوسِ في الصيفِ ، كانَ يخافُ جَرِيرَةَ تلكَ البَقِية ، وجِنايةَ تلكَ الفَضْلةِ . وكانَ يقولُ : إنْ أكلتُها بعد الشَّبَع لم آمن العَطبَ ، وإن تركتُها لهم في الصيفِ ولم يعرفوا العلَّة ، طلبوا ذلكَ منِّي في الشتاءِ .

(مع العنبري وبخله)

حدَّثنى المَكِّىُّ قالَ : كنتُ يومًا عند العَنْبَرِيِّ ، إذ جاءتْ جاريةُ أُمِّه ومعها كوزٌ فارغٌ. فقالتْ : قالتْ أُمُّك : بَلَغَني أنَّ عندك مُزَمَّلَةً[3] ، ويومُنا يومٌ حارٌّ . فابعثْ إلىَّ بشَرْبةٍ منها في هذا الكُوزِ. قال : كَذَبْتِ ! أُمِّى أعقلُ مِنْ أن تَبْعَثَ بكُوزٍ فارغٍ ، وتَرُدُّه ملآنَ ! اذهبى فاملئيه من ماءِ حُبِّكم ،

(١) دونا ، أى : رديئا خسيسا .
(٢) العلل : الأسباب الحافزة لشراء الرأس .
(٣) مزملة : جرة الماء ونحوها لفت بثوب مبلول لتبرد .

وفَرِّغيه في حُبِّنا . ثم املئِيه من ماءِ مُزَمَّلَتِنا ، حتى يكونَ شيءٌ بشيءٍ!

قالَ المكِّيُّ : فإذَا هو يُريدُ أن تدفعَ جَوْهرًا بجوهرٍ ، وعَرَضا بِعَرَضٍ ، حتى لا تَرْبَحَ أمُّه إلا صَرْفَ ما بينَ العَرَضينِ ، الذي هو البَرْدُ والحَر . فأما عددُ الجواهِرِ والأَعْرَاضِ فَمِثْلًا بِمِثْلٍ .

وقال المَكِّيُّ : دخلتُ عليه يومًا ، وإذا عِنْدَه جُلَّةُ تَمْرٍ ، وإذَا ظِئْرُه[1] جالسةٌ قُبَالَتَه. فلمَّا أكل تَمْرةً رَمَى بِنَواتها فمصَّتها ساعة ثم عَزَلَتها .

فقلت للمكِّي : أكان يَدَعُ على النَّواةِ من جسمِ التَّمر شيئًا ؟

قال : والله رأيتُها لاكتْ نواةً مرةً بعد أن مصَّتها ، فصاح بها صَيْحةً لو كانتْ قتلتْ قتيلًا ما كانَ عنده أكْثرُ من ذلكَ ! وما كانت إلاَّ في أن تَنَاوَلَ الأَعْرَاضَ ، وتُسَلِّمَ إليه الجَوْهَرَ . وكانتْ تأخُذ حلاوَة النَّواة ، وتُودِعُها نَدْوَةَ الرِّبقِ .

(مع أبو قطبة وبخله)

قالَ الخليلُ : كانَ أبو قُطْبَةَ يَسْتَغِلُّ ثلاثة آلافِ دينارٍ . وكانَ مِنَ البخلِ يَؤخِّر تَنْقِيةَ بَالُوعَته إلَى يومِ المطرِ الشديدِ ، وسَيْلِ المَثَاعِبِ[2] ، ليكْتَرِيَ رجلًا واحدًا فقط ، يُخْرِجُ ما فيهاَ ويَصُبُّه في الطريقِ ، فيجترفُه السيلُ ، ويؤَدِّيه إلَى القَنَاةِ ! وكانَ بينَ موضعِ بئرِهِ والصَّبِّ قَدْرُ مائتي ذِراعٍ . فكانَ لمكَانِ زيادةِ دِرْهمين ، يحتملُ الانتظارَ شهرًا أو شهرينِ ، وإنْ هو جَرَى في الطريقِ ، وأَوذى به النَّاس !

وقال : ونَظَر يومًا إلَى الكسَّاحينَ ، وهو معنَا جالسٌ في رجالٍ من قُرَيْشٍ ، وهم يُخْرِجونَ ما في بَالُوعتِه ، ويَرْمُونَ به في الطريقِ ، وَسَيْلُ المثاعبِ يحتمله ، فقالَ : أليس البَطُّ والجِدَاءُ والدَّجاجُ والفِراخُ والدُّرَّاجُ[3] ، وخُبْزُ الشَّعِير والصِّحْنَاءُ[4] والكُرَّاثُ والجُوَافُ جميعًا ، يصيرُ إلى ما تَرَوْن ؟ فَلِم يُغَالى بشيء يصيرُ هو والرَّخِيصُ في مَعْنىً واحدٍ ؟

قالَ : وهُم ثلاثةُ إخْوةٍ : أبو قُطْبَةَ والطَّيِّلُ وبآبِي ، مِنْ وَلَدِ عَتَّابِ بن أَسِيد - واحدٌ منهم كانَ يحجُّ عن حَمْزَةَ ، ويقول : استُشْهِدَ قبل أن يَحُجَّ . والآخَرُ كان يُضَحِّي عن أبي بكر وعُمَرَ ، ويقول : أَخْطَأَ السّنَّةَ في ترك الضَّحِيةِ . وكانَ الآخرُ يُفْطِر عن عائشةَ أيامَ التشريقِ[5] ، ويقولُ : غَلِطَتْ - رحِمَها الله - في صَوْمِها أيّام العيدِ . فَمَنْ صامِ عن أبيه وأُمِّه ، فأنا أفْطِر عن عائشة.

---

(١) الظئر : المرضعة لغير ولدها ، وظأرت المرأة على ولد غيرها : عطفت عليه .

(٢) المثاعب : مسيل الماء فى المدينة ، ومجرى الماء من الحوض وغيره .

(٣) طائر من طير العراق .

(٤) الصحناء . إدام يتخذ من السمك الصغار المملح .

(٥) أيام التشريق : هى الأيام الثلاثة بعد يوم النحر .